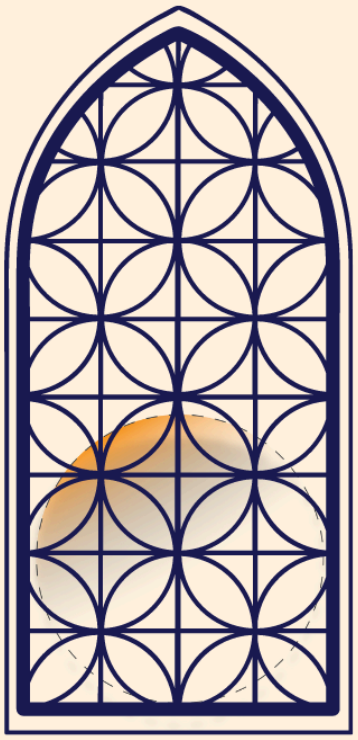

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الرابع عشر

الجمعة 14 رمضان 1443

سورة النحل الآيات (43 - 50)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، معتقدين أنه -عزّ وجلّ- مستحق للثناء، نعم، إنه -عزّ وجلّ- مستحق للثناء، فما أعظم نعمه على عباده! وما أعظم ما منّ به عليهم من معرفته، وما أعظم ما منّ به عليهم من طرق لعبادته وطاعته والتقرب إليه وسؤاله! كيف والعبد الضعيف يرجو دائمًا أن يكون على صلة بالملك العظيم؟! الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، كيف لا والنفوس كلها تشتاق إلى أن تكون لها صلة بمَن هو مالك الملك؟! بمَن له الأمر من قبل ومن بعد، كيف لا والنفوس تشتاق لشكر مَن أنعم عليها؟! فهذه فطرة في النفوس؛ أن النفوس تحب أن تشكر مَن أنعم عليها.

وها نحن أمام سورة عظيمة، سماها السلف الصالح بـ (سورة النعم) لما فيها من ذكر نعم الله -عزّ وجلّ- التي أعظمها، وأجلها: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتعليم رب العالمين هؤلاء المخلوقين مَن هو ربهم ومالكهم، مَن هو مدبرهم. إنها نعمة عظيمة أن تعرف الله، إنها نعمة عظيمة أن تنزل الكتب ويرسل الرسل لأجل أن تعرف الله معرفة يقينية تبلغ بك وقت لقائه أن تكون من أهل معرفته، وكما في الحديث[1] الصحيح، إذا ذهب كل قوم مع معبودهم، انتظر أهل الإيمان رب العالمين، فيأتيهم بصورة كمال عظيمة، لكن هذه الصورة لا يعرفونها، لأن الخلق ما تعلموا كل أسماء الله وصفاته، هذا شيء لا يحيط به عقل الإنسان، لكنهم تعلموا شيئًا من أسمائه وصفاتهم، فيأتيهم بصورة الجلال والكمال لكن لا يعرفون هذه الصورة فيقولوا: (ها نحن هنا ننتظر ربنا) فيأتيهم ربنا بالصورة التي يعرفونها. فيعيش الإنسان في الدنيا ينتظر هذه اللحظة؛ يتعلّم عن الله في الدنيا ليكون وقت لقائه بالله عارفًا مَن هو الله، فإذا كان ذاك اللقاء سجد سجود العارفين الشاكرين الفرحين بلقاء ربهم.

وفي هذا الموقف تتصلب ظهور المنافقين فلا يستطيعوا أن يصلوا إلى السجود، فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة العظيمة.

---

[1]() الحديث أخرجه البخاري (4581).

وصلاتنا وسلامنا على الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- في مثل هذا النهار إنما هو من شكر نعمة إرساله -صلّى الله عليه وسلّم-.

نقرأ في هذه السورة ما يزيدنا معرفة بهذه النعمة: نعمة إرسال الرسول، وكيف سيعامل رب العالمين الماكرين الذين ينكرون الرسل، بل ويكيدون ويمكرون بالخلق لأجل أن ينفروهم من الطريق. نقرأ هذه الآيات من سورة النحل:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ((50)

هذه الآيات المباركات التي استمعنا لها بدأت بخبر عظيم عن الرسل، وفي هذا تكذيب لمن كذب أن يرسل الله -عزّ

وجلّ- رسولًا من البشر، وهذه الآية تنبئنا عن أن الكفار حين يُرسل لهم رسول منهم، يستغربون جدًا أن يبعث الله رسلًا من البشر، ويقولون: (إن الله أعظم من أن يرسل بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فلو كان مرسلًا من عند الله حقًا، لأرسل الله ملائكة!) وهذا المعنى تكرر كثيرًا في القرآن؛ إنكارهم لبشرية الرسول، بمعنى أنهم يرون أن الله العظيم لا يحتاج أن يصطفي من الخلق بشرًا ويرسلهم، بل يكفي أن يرسل ملائكة، وهذا الاقتراح من هؤلاء إنما هو كلام سببه: العناد، وإلا فكيف يرسل الله -عزّ وجلّ- للبشر رسولًا من الملائكة؟! ألا يمكن أن يعتذر البشر مباشرة بأن هذا مَلك وأننا لا نستطيع أن نفعل مثل فعله؟! لكنهم ما قدروا الله حق قدره، لكنهم ما عرفوا حكمة الله، لكنهم ما عرفوا أن الرب يربي عباده، وربما يكون أصل هذا الكلام كله هو الحسد؛ لأن الله اختار من بين أظهرهم وممَّن هو مثلهم في البشرية، اختاره واصطفاه عليهم، فلو كان الرسول ملكًا كان لا يمكن أن يدخلوا مع الرسول الملكي في مقارنة، وكان هذا أهدى لأنفسهم ومُذهبًا لحسدها، لكن لما كان الرسول المصطفى بشرًا مثلهم، فهذا يجعلهم يحسدونه ويقولون: (ما الذي يميزه علينا؟) فيدخل هذا الحسد مانعًا وحاجزًا لهم عن الإيمان والتسليم، بل يصل بهم الحسد لأن ينفّروا الناس من هذا الطريق ولا بد أن نعتبر هذا النوع من الحسد! كثير من الناس حين يسمعون كلمة (الحسد) يتصورون اتصالها بمسألة العين،

بمعنى أنها تصيب المحسود صاحب النعمة بأذى في بدنه، وهذا أمر لا ينكر أبدًا، بل قد أتت السنة لإثبات هذا.

لكن الحسد كلمة أوسع؛ فكل ذي نعمة محسود، ويمكن أن يكون الحسد من جماعة لشخص أو من أمة لأمة، كما أخبرنا رب العالمين عن اليهود وحسدهم للرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وحسدهم لأمة الإسلام، ومثله النصارى، فالحسد سبب للمكر.

فيكون المكر تعبيرًا عن الحسد، أو تنفيسًا لمشاعر البغض التي يحملونها في أنفسهم للمحسود، وهذا كله يعود إلى أمر واحد؛ أنهم ليسوا صادقين في إرادة الحق إنما راغبون في العلو، فالحاسد يريد أن يكون أعلى من غيره، فيبغض ما على المحسود من نعمة لأنه تقدم بها عليه، فإذا أتى المحسود بالحق، ما قبلوه لأن قبولهم معناه أن يكونوا تابعين للمحسود، وهم يريدون ألا يكونون تابعين، ولا يكون للمحسود أتباع أصلًا فيكرهوا هذه النعمة عليه.

بيّن -عزّ وجلّ- في الإجابة على إنكارهم نبوة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، وأنه مرسل من عند الله بحجة أنه بشر، رد عليهم -عزّ وجلّ- وبيّن هذا الزعم، ونفى هذه الشبهة فقال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) هذه عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف؛ أنه لم يبعث رسولًا إلا من البشر، وهذه العادة مستمرة لله -سبحانه وتعالى- وهذه العادة منه -سبحانه وتعالى- دليل حكمته، فالرسول مرسل للتأسي به، الرسول مرسل لتُنقل تفاصيل أخباره في حياته المشابهة للخلق فيسير عليها الخلق، وهذا من معاني صلاتنا وسلامنا على الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-: أن نثني على الله ضمن هذه الصلاة والسلام؛ لأن الذي يقول: (يا رب أثن على رسولك محمد -صلّى الله عليه وسلّم-، وعلى الرسل جميعًا) فإنه يُضَمِّن سؤاله هذا اعترافه بحكمة الله -عزّ وجلّ- بإرسال هذا الرسول وبإرسال الرسل جميعًا، اعترافه بحكمة الله وفضل الله وحسن اصطفاء الله من خلقه مَن يستحقون أن يكونوا قدوات.

وطعن هؤلاء الجهال بمثل هذا السؤال إنما هو من الحسد فلا يلتفت إليه، وواضح في الآية أن هؤلاء الرجال يوحى إليهم، فمن هنا أصبحت لهم مكانة، ومن هنا أصبح ارتفاعهم واجب، فهم (رِجَالًا) بمعنى أنهم رجال وليسوا نساء، و (رِجَالًا) بمعنى أنهم بشر، و (رِجَالًا) تدل على منزلتهم البشرية و (نُوحِي) تدل على منزلتهم الرسالية.

إذًا ننظر للرسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وللرسل جميعًا من هاتين الجهتين:

- جهة أنه بشر فلا يؤله.
- وجهة أنه يوحى إليه فيرتفع بهذا السبب.

وهذا كله من العقيدة التي سنسأل عنها يوم القيامة وستوزن في الموازين. فمثل هذه الأمور يحفظها المؤمن في قلبه ولا يورد عليها الشبه، بل يزيد اليقين.

كيف يزيد اليقين؟ هذه الآية تدلنا على أن الواجب زيادة اليقين بهذه العقائد؛ لأن الأمر هنا بسؤال أهل الذكر، أهل الكتب السابقة (إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) نبأ الأولين وشككتم: هل بعث الله رجالًا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الكتب السابقة.

والحمد لله نحن في غنى عن ذلك كوننا -بفضل- الله لسنا بشاكين، لكن هذه الجملة من الآية ترشدنا إلى أن المطلوب طلب الزيادة، أي أن دفع الشك مرحلة وزيادة اليقين مرحلة، فالذين لا يعلمون يسألون، والذين يعلمون يزدادون إيمانًا...الحمد لله.

وهذه الآية كما ذكر المفسرون: "فيها مدح لأهل الذكر" يعني أهل العلم، وأعلى أنواع العلم هو العلم بكتاب الله المنزل وهذا العلم هو الذي يستحق أن يسمى (علم) إطلاقًا، وهذا العلم هو العلم المقدس الذي يؤمر الخلق أن يرجعوا إلى أهله؛

لأن الله أمرهم بسؤالهم، وبسؤال أهل العلم الموثوقين يخرج الجاهل من التّبعة. وهذا كله دليل على أن أهل العلم الصادقين المتّبعين للرسول الكريم، مؤتمنين على العلم، وأن كل من سلك طريق العلم وكان صادقًا في ذلك فعلامة صدقه وعلامة أنه من أهل الذكر: حرصه على تزكية نفسه بالعلم الذي يتعلمه، وبذله في أن يترقى مراقي الكمال، وهذه علامة غاية في الأهمية، فحين يقال: (مَن هم أهل الذكر الذين أسألهم؟)

نقول: لذلك علامات:

- من جهة علمهم حرصهم على أن يتبعوا الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- ويجعلوه بين عينيهم ويتمثّلون هديه -صلّى الله عليه وسلّم-، ويأخذون من العلم الذي جاء به -صلّى الله عليه وسلّم- من عند ربهم.
- ومن جهة أثر هذا العلم فتجدهم يزكون أنفسهم، ويترقون في صفات الكمال.

أما من يطلب بالعلم وجوه الخلق والشهرة عندهم والارتفاع فتصبح فتواه وكلامه على ما يقبله ذوق الناس وهواهم، فهذا ليس أهلًا أن يُسأل! فانظر إلى هذه الآية كم تحمل من معانٍ، سبحان الله!

وانظر كيف بهذه الآية تنطوي صفحة المشككين ويتأكد أهل الإيمان واليقين ويزدادون يقينًا أن هذه سنة الله في العالمين:

إرسال الرسول من البشر لما في ذلك من حكمة عظيمة، وتحقيق للغرض من إرساله؛ فهو يأكل مثلما يأكلون، وينام مثلما ينامون، ويتزوج النساء، وينزل إلى الأسواق، وله في كل حالة من هذه الحالات، ومن كل تفاصيل الحياة، له هدي مشهور معروف حفظه الله لنا، فالحمد لله على هذ النعمة.

وهذه الآية تجعلنا ننظر إلى الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- من الجهتين:

- من جهة العبودية؛ فهو رجل من الرجال الذين خلقه الله.
- ومن جهة الاصطفاء بالنبوة والرسالة؛ (نُّوحِي إِلَيْهِمْ).

فجهة العبودية يقيننا أنه عبد لله يمنعنا من تأليهه لما نجد من كمال صفاته؛ لأن الإنسان عندما ينظر إلى كامل الصفات البشرية يقع في قلبه التعظيم المطلق، نقول: (التعظيم المطلق إنما هو لله) البشرية تمنع تأليهه، والرسالية تمنع مساواته بالخلق، فهو مثل الخلق في بشريته، ومختلف بنبوته، مرتفع منزلة بهذه النبوة، بل منازل عظيمة عند رب العالمين، وإنما أتى مبلغ هذا الوحي.

(نُّوحِي إِلَيْهِمْ) كلمة عظيمة، كل هذا الذي نقرؤه في الكتاب أو نسمعه من سنة النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، إنما هو وحي يوحى، الله يتكلم به، فيسمعه جبريل وينزل به على الرسول

-صلّى الله عليه وسلّم-، سبحان الله كم هو عظيم هذا الشأن، كم عناية الله بالخلق عظيمة، أن يتكلم بكلام يرشدهم، ويبقون يتلونه آناء الليل وأطراف النهار فيجدون فيه شفاءهم ودواءهم، ويجدون فيه النور المبين والحق العظيم، فيخرجهم الله بذلك من الظلمات إلى النور، كما تبيّن في مطلع سورة إبراهيم، بإذنه يخرجون من الظلمات إلى النور.

ثم بيّن -عزّ وجلّ- في الآية التالية:

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ)، والمعنى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ) (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ)، (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ).

الآن لما اتضحت الحجة بشواهد التاريخ الذي لا يستطيعون إنكاره، لأن عندهم اليهود وقد أرسل موسى إليهم، وعندهم النصارى وقد أرسل إليهم عيسى -عليه السلام- وحولهم قوم صالح وقوم هود...وهكذا، فهم لا يستطيعون إلا أن يسلموا بهذه الحقيقة: أن كل الرسل السابقين كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة، تذكر النتيجة المقصودة الآن؛ إذا كان كل الرسل بشر فالنتيجة: أن ما أُنزل على الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- إنما هو ذكر وليس أساطير الأولين؛ لذلك قال -عزّ وجلّ- : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) إذًا هذا هو الوحي.

ما الحكمة من إنزال هذا الذكر؟ ذكر -جلّ وعلا- في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، إحداهما: أن يبيّن للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، أن يبيّن لهم، وهذا في نفس سورة النحل سيأتي مرة أخرى في قوله تعالى: (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ)[2] وفي القرآن إشارات كثيرة إلى هذا المعنى.

إذًا (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) الحكمة الأولى: أن النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بشر؛ مثل البشر الذين حوله، مشاعره من مشاعرهم، يعرف الحزن والخوف، ويعرف الضراء والسراء، ويعرف كل هذه المعاني النفسية التي أتى القرآن لتهذيبها، فيبيّن لهم الوعد والوعيد بحيث يكون في نفوسهم استجابة لذلك، وهذا أمر عظيم من وظائف الرسل، أن يبينوا للخلق ما أنزل إليهم.

تأتي الحكمة الثانية من وراء الأولى: (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) يبيّن الرسول ما أنزل إليه، والخلق يسمعون من الرسول هذا الذي أنزل بعدما بيّن، لأن التبيين هو: إيضاح المعاني، ويعرِّف الناس ما نزّل إليهم، هم ماذا يفعلون حين يسمعون ما نزّل على الرسول ويبلغهم الرسول هذا الأمر الذي نزل من

---

[2] () النحل: 64.

عند الله؟ هم يقومون بوظيفتهم (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وهنا أحسن ما قيل في قوله تعالى: (وَلَعَلَّهُمْ) أي: "كي يتفكروا".

إذًا هذه حكمة من حكم إنزال القرآن، وهي أن ينتفع الناس من هذا العقل الذي وهب لهم، من هذه القدرة التي في نفوسهم على تقليب الأمور والنظر فيها، وربطها وتحليلها، كل هذا الذي تسمعه اليوم بكثير من التفاصيل، وربما دخلت فيه الفلسفة؛ (مسألة التفكير) فهي قدرة موهوبة للإنسان تعينه على النظر في الأمور وعلى تقليبها وتحليلها وربطها والوصول منها لنتائج، فالرسول -صلّى الله عليه وسلّم- يبيّن للقرآن وبيان القرآن تهيئة لفكر الإنسان لكي يصل إلى الحقائق الغيبية، فيعبر من الأمور الحسية إلى الحقائق الغيبيّة. فتبيان القرآن تهيئة لتفكير الإنسان ليعبر الإنسان من الحقائق القرآنية والحقائق المادية والحقائق المحسوسة إلى الحقائق الغيبية.

وهذا يدل على انتفاع الإنسان؛ لذلك كثر في القرآن ضرب الأمثلة، وهذه السورة العظيمة فيها أمثلة كثيرة والأمثلة لا يعقلها إلا العالمون، كما أخبر -سبحانه وتعالى-، فالناس يشاهدون أمورًا أمامهم في الحياة ويسمعون عن الحقائق الغيبية في القرآن فحين يتفكرون يعبرون من هذه الحقائق الدنيوية إلى الحقائق الغيبية.

وبالمثال يتضح المقال، فلو أخذنا المثل الذي في سورة إبراهيم وهي قريبة من سورة النحل بينهما سورة الحجر:

في سورة إبراهيم ضرب الله لهم مثلًا شديد الظهور بالنسبة لهم وهو مثل للنخلة أو الشجرة عمومًا، التي لها أصل ثابت، ولها فرع طويل في السماء وتؤتي أكلها.

في شرح هذا المثل ذكر أهل العلم أن المقصود "النخلة".

الشاهد: أن كل الناس يرون الشجر، ويرون كيف تضرب الأشجار بجذورها إلى أعماق الأرض فتثبت، ويرون أنها تمتد طويلًا فترتفع، ويرونها وهي تمتد، ثم يرون الثمار، ويعرفون أحوال الأشجار، أليس هذا أمرًا محسوسًا؟ بلى، بماذا ضرب الله به مثل؟ ضرب مثلًا بالكلمة الطيبة، أي: انظر إلى الشجرة كيف لها أصل ثابت وفرعها في السماء، وتؤتي أكلها كل حين، فلتعلم أن الإيمان واليقين والعقيدة الصحيحة إنما هي بمثابة الخفي تحت الأرض، جذور مضروبة في داخل القلب، وكلّما زدت يقينًا وغذيت النفس بالعلم، كلّما زادت هذه الجذور ثباتًا في الأرض.

كما كلّما سُقيت هذه الأرض وسُمدت سمادًا نافعًا لها، كلّما امتدت الجذور إلى أعماق الأرض فزادت ثباتًا.

ثم ألم تر إلى الشجرة كيف تنمو؟ وكذلك العمل الصالح المبني على عقيدة سوية ينمو ويرتفع إلى السماء، ثم تأتيك الثمرات العظيمة من عند رب العالمين، يزيدك يقينًا، يشرح

صدرك لأعمال صالحة، يزيدك معرفة به، يزيدك أنسًا به، فالحمد لله.

فانظر كيف عبرنا من الشجرة المخلوقة الواضحة، هذه الحقيقة، إلى الحقائق الغيبية والمعاني الإيمانية التي تخفى في النفوس.

إذًا من هذا نفهم: (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) إذا نظروا إلى الرض، وإلى ما خلق الله، وإلى السماء وإلى الأودية وإلى البحار وإلى الأنهار، علّهم أن يقرؤوا القرآن من جهة، بعدما بيّنه الرسول لهم، وينظرون لما حولهم فيعبروا بهذا التفكير من هذه الحقائق المحسوسة إلى الحقائق الغيبية فيزدادوا يقينًا برب العالمين.

فحين يظهر القرآن ويتبيّن للناس يكون الإنسان على هدى في تفكيره، أما من لم يكن القرآن هاديًا له ولم تكن أسس المعارف منتزعة من القرآن، مثل: ما هي الحياة، ما حقيقتها، ما سرعتها؟ كيف لا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية الموضوع ونهاية القصة؟ كيف لا بد أن تكون هناك دار آخرة؟ كل هذه الحقائق الإيمانية وغيرها كثير يتلقها الإنسان من إيضاح الرسول لها، ومن إيضاح من سار على سير الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- من أهل الذكر، ثم يبدأ بالتفكير؛ لذلك يزداد الإنسان عقلًا وفهمًا كلّما بانت له الحقائق الإيمانية.

فانظر إلى هذا الترتيب من أجل ألا ينحرف التفكير: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) ما نزل إليهم (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فيما نزّل إليهم فيصلوا إلى اليقين بما يحصل عندهم من تفكير.

نختصر هذا الكلام التفصيلي بخبر عظيم ذكره الله -عزّ وجلّ- عن أولي الألباب في سورة آل عمران، قال تعالى: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[3] ثم ينظرون، أنه لا يمكن أن تقبل عقولهم أن يكون هذا كله مخلوق للا شيء، والأخبار القرآنية بيّنت لهم أنه لا يمكن أن يكون خلق عبثًا، لا يمكن أن يكون للا شيء، فلا بد من لقاء ولا بد من حساب، يظهر فيه آثار كمال الله -عزّ وجلّ-؛ لذلك حين تفكروا في خلق السماوات والأرض مباشرة خرجوا بهذه النتيجة: (مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا) لا بد أنه حق، ما هو الحق؟ الخبر الذي جاءنا في الكتاب؛ الناس سيوضعون مواضعهم، يوم القيامة يتفرقون، أهل الجنة في الجنة، نسأل الله لنا من فضله ولكل أحبابنا، وأهل النار في النار؛ لذلك أول ما يصلون لهذه الحقيقة التي هي أصلًا واضحة في القرآن، مباشرة يقولون: (فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

هذا المعنى عظيم الذي يجب أن نصل إليه من القرآن ونحن في شهر القرآن وتلاوة القرآن أحب ما تكون إلينا، الحمد لله، الله يشرح الصدور، لكن فلنكن حريصين على أن نتبيّن هذا

---

[3]() آل عمران: 191.

الكتاب العظيم ونصل إلى التفكير. لأنه كما هو واضح، قد ذكر الله في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال الكتاب:

- أن يبين للناس ما نزل إليهم من الكتاب.
- وأن يتفكروا بآياته ويتعظون به.

يتفكرون ويتفكرون حتى يصلوا، فتلامس الحقائق قلوبهم ويعبرون من هذه الدنيا إلى الحقائق الغيبية كأنهم يرونها.

ثم فلننظر إلى الأعداء، هل سيتركوننا؟ أم سيشغلوننا عن هذا القرآن؟ هل سيتركون بيان الرسول لنا؟ أم سيلقون الشّبه على بيانه؟ والمعنى واضح والأمر ملموس محسوس، فهم لا يتركوننا نفرغ للتفكر في آيات القرآن، بل من كل جهة يغزوننا ويعلقون أهواءنا بأمور تافهة ومشاغل لا قيمة لها، وتجد كل يوم أمر جديد يشغل الناس عن دينهم، ليس هذا فقط، إنما كما تبيّن لنا أمس في سورة إبراهيم، عملهم لا يقف عند أنهم يصدون عن سبيل الله بإيجاد المشاغل وإنما (يَبْغُونَهَا عِوَجًا) فماذا يفعلون؟ يلقون الشبه على هذا الكتاب وعلى هذا الرسول، وهذا كله من مكرهم فأتت الآية تهددهم:

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ(45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47))

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) مكرهم للسيئات صدهم عن سبيل الله وكونهم يريدون أن تكون عوجًا. إذًا هم مكروا المكرات السيئات، واشتغلوا بهذا عن طلب الحق فهددهم الله بأمور أربعة:

أولًا: أن (يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) كما خسف بقارون.

أو ثانيًا: أن (يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)، يفاجئهم العذاب كما فاجأ قوم لوط، أتاهم بغتة.

ثالثًا: (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) أن يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم؛ لأن الله قادر على إهلاكهم في السفر، كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر، وضربهم في الأرض لا يعجز الله، يدركهم أينما كانوا، أو يمكن التقلب يكون بمعنى (تقلبهم في الليل والنهار) في حال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم، وهم يتصرفون كأن شيئًا لم يكن، وكأنهم لم يمكروا، وكأن رب العالمين لا يدبر الأمور! ومن تقلبهم أيضا تقلبهم في المكر نفسه، في أفكارهم، فيأخذهم الله وهم في أفكارهم ويقلب الأمور عليهم ويجعل مكرهم الذي مكروه تدميرًا عليهم.

رابعًا: (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ) والتخوف هو: التفعل من الخوف، هذا معناه أن العذاب لا يأتيهم بغتة إنما يأتيهم خوف بعد خوف فيعذبوا بنفس الإخافة، يرون الناس يهلكون بأمراض وأوبئة وحروب، فيبقوا خائفين ماذا سيأتي عليهم

غدًا؟! وتهلك جماعة فيخاف الباقين متى سيأتي دورهم وما الذي سيهلكهم؟! وهذا من معاني أن الله يأخذهم على تخوف.

وقد قيل: "إن التخوف هو التنقص" بمعنى أن الله -عزّ وجلّ- لا يعاجلهم بالعقوبة إنما ينقص من أطراف بلادهم، من أموالهم وأنفسهم يموتون قليلًا، قليلًا.

الحاصل هنا أن رب العالمين يخوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء، أو بآفات تحدث دفعة واحدة، حال لا يكونون هم عالمين بذلك، أو بآفات تأتي قليلًا، قليًلا إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم.

وهنا نرى ما يخبر به رب العالمين عن لطفه العظيم -سبحانه وتعالى- (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) ربكم هو الذي خلقكم وأوجدكم وأعدكم وأمدكم، فأنتم لستم بمعجزين لله، بل أنتم تحت قبضته، ونواصيكم بيده، لكن لماذا لم يعجل العذاب؟ لأنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، فهذه الخاتمة من أعظم خواتيم الآيات التي تفتح باب الرجاء، فكأنه يقال: لا يعاجلكم بالعذاب بسبب أن رحمته سبقت غضبه، وأنه رؤوف بعباده فيفتح لكم باب التوبة، ويدعوكم إلى الإقلاع عن السيئة، ويعدكم بأفضل الأحوال وأفضل الكرامات فيغفر لكم ما صدر من ذنوبكم، ويرفعكم في جناته درجات.

فإذا علمنا أن الله يمهل ولا يهمل وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فلتكن منا جميعًا التوبة والأوبة، ولندخل نحن وندعو لأبنائنا وأبنائهم وأبناء المسلمين أن يبتدروا هذه الرحمة الواسعة.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبرّه العميم، ولندعُ لأنفسنا ولكل شباب المسلمين أن يقبلوا على سلوك هذا الطريق الموصل إلى فضل ربنا الرحيم، ندعو أن يكونوا أتقياء أوفياء بما عاهدوا الله عليه من الإيمان، فإذا عرفنا عظيم رأفة الرحمن ورحمته، فالواجب ألا ننسى بأسه، فنصير كالآمنين منه.

وننظر للآية التالية التي تبيّن لنا حال هؤلاء الكمّل، فلما خوّف الله هؤلاء العباد بهذه الأمور الأربعة، ودعاهم إلى توبته وإلى تقواه وإلى طاعته، بيّن لهم حال هذه المخلوقات، فدلّ على كمال قدرته، وعظم استغنائه عن طاعتهم، وهنا لا بد أن نؤكد على عظم استغناء الله، -عزّ وجلّ-، عن طاعتهم قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49))

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ) فهل تظنون أنكم لو تركتم عبادة رب العالمين ستبلغون ضرّ رب العالمين فتضروه؟! لا والله! (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) الجميع ساجدون عابدون، فهذا يدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه، -سبحانه وتعالى-.

وكل هذا أيضًا يدلنا على كمال غناه، فهذا الخبر يدل على عظمته وكبريائه وجلاله وكمال غناه عن خلقه، فهو الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جمادها وحيوانها والمكلفين من الإنس والجن والملائكة، فكل ما له ظلّ يتفيّأ ذات اليمين وذات الشمال بكرة وعشيًا يكون ساجدًا بظله لله؛ لذلك كان من قول مجاهد: "إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله -عزّ وجلّ-" فهذا دليل عظيم على استغنائه -عزّ وجلّ- عن العالمين، نعم، إنه مستغنٍ عن كل الخلق، لكن لتعلم أيها المؤمن، ولتعلم أيها الإنسان أن هذا الكون كله خاضع لله، والمستكبر لا يضر إلا نفسه، وليعلم أهل الاستكبار أنهم منقادون لإرادة الله كرهًا.

يتبيّن أن هناك نوعين من السجود:

- سجود يختاره الإنسان، وهذا موافق لأمر الله، يفعله طوعًا لله مقبلًا على الله، متقربًا إليه بذلك.

- والسجود الثاني هو السجود الذي يكون كرهًا، وهو مثلما ذكر مجاهد: "إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله" بسجود الظلال.

(وَهُمْ دَاخِرُونَ) أي: صاغرون، فكل شيء يكون ساجدًا لله مستسلمًا لله، ذليلًا لله، تحت التسخير والتدبير والقهر، لا يوجد شيء ولا يوجد أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره من عند الله.

ثم لننظر لهؤلاء الملائكة الكرام الذين حالهم أنهم ساجدون لله، غير مستكبرين عن عبادة الله و

(يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50))

يخافون ربهم من فوقهم، وسجودهم يكون خوفًا ووجلًا من الرب -جلّ وعلا- ويفعلون ما يؤمرون، فكونوا بهم متشبهين، كونوا بهؤلاء الذين سجدوا لله طوعًا، ولم يكونوا مستكبرين عن عبادة الله وهم خائفون وجلون من الله، كونوا بهؤلاء متشبهين وهم على كثرتهم، كما ورد في الحديث: «قد أطَّت بهم السماءُ ، وحقَّ لها أن تئطَ ، ما فيها موضعَ أربعِ أصابعٍ إلا وملك قائمٌ ، أو راكعٌ ، أو ساجدٌ »[4] هذا في السماء، فتصور كثرتهم وتصور عظم خلقتهم فإن لجبريل ستمائة جناح، كل جناح يسد الأفق! وفي الأخبار لما رآه النبي -صلّى الله عليه وسلّم- على صورته سقط مغشيًا عليه، النبي -صلّى

---

[4]() صححه الألباني.

الله عليه وسلّم- رآه على صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة عند سدرة المنتهى.

فهذا خلق الملائكة، عظام، ومع ذلك خاشعين لرب العالمين، عظمتهم ما أدت إلى استكبارهم، وأنت أيها الإنسان ضعيف، لا تملك من شأن نفسك شيء، وأنت بنفسك قدراتك وأحوالك ضعيفة، فكيف تستكبر؟! كيف تقول: لماذا لم يأتِ الرسل ملائكة؟! هؤلاء الملائكة لهم وظائفهم ولهم أعمالهم ولهم خلقتهم، لا تطيق أن تخالطهم ولا أن تفعل مثلهم، لكن تشبّه بهم فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، ساجدون راضون عابدون مسبحون، فكن بالملائكة مقتديًا وهم في حال الكمال، ولا تصرف وقتك فيما يضرك، وينقص عليك أجرك ولن تحصل من ورائه أي أمر يذكر، فالتشبه بهؤلاء فضيلة.

على كل حال، أتى الخبر عن الملائكة وأنهم ساجدون تبعًا لخبر أن كل ما خلق الله ساجد (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) بين يدي الله منكسرون، كل ما خلق الله ساجدين ومنهم الناس، والناس هناك من سجودهم ما هو اختياري وما هو سجود إجباري لكن أيها المؤمن انظر إلى حال الملائكة (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فكر في حالهم وشابههم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا،

واترك الكبر وعالج نفسك منه وأكثر من الاستغفار من مثل هذه الأمراض نعوذ بالله من سوء الخاتمة، هذا ما تيسر ذكره في هذه الآيات العظيمات.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.